

المثل السائر

أن يقول كلمة واحدة وهو أقلق اللسان يسيء العبارة فسألته عن زيارة شخص وهل يتردد إليه أم لا فقال ظلام الليل يهديني إلى باب من أوده وضوء النهار يضل بي عن باب من لا أوده وهذا من أطف المعاني وأحسنها وهو من الحكمة المطلوبة .

وكنت فصدت زيارة بعض الأخوان من الأجناد وهو من الأعتام الأعجام فسألته عن حاله وكان توالى عليه نكبات طالت أيامها وعظمت آلامها فقال لي في الجواب ما معناه إنه لم يبق عندي ارتياح لوقوع نائبة من النوائب وهذا معنى لو أتى به شاعر مفلق أو كاتب بليغ لاستحسن منه غاية الاستحسان .

وكنت في سنة ثمان وثمانين وخمسائة بأرض فلسطين في الجيش الذي كان قبالة العدو الكافر من الفرنج لعنهم الله وتقابل الفريقان على مدينة يافا وكان إلى جانبي ثلاثة فرسان من المسلمين فتعاقدوا على الحملة إلى نحو العدو فلما حملوا صدق منهم اثنان وتلكأ واحد فقيل له في ذلك فقال الموت طعام لا تجشه المعدة فلما سمعت هذه الكلمة استحسنتها وإذا هي صادرة عن رجل من أهل بصرى قدم من الأقدام .

ولو أخذت في ذكر ما سمعته من هذا لأطلت وإنما دلت بيسير ما ذكرته على المراد وهو أنه يجب على المتصدي للشعر والخطابة أن يتتبع أقوال الناس